

أعياد الأُمَم

obeikandi.com

(يوم الأمهات*)

احتفل الشعب الأمريكي ذات يوم بيوم الأمهات .. وهو اليوم الذى يقدم فيه كل ابن إلى أمه هدية صغيرة .. وتصبح الأم فى كل بيت ملكة متوجة لا تطبخ .. ولا تغسل .. ولا تشقى فى الشئون المنزلية .. بل يتسابق الأولاد إلى خدمة أمهم ورعايتها .. يعدون لها الطعام، ويغسلون الأطباق .. ويدعونها إلى قضاء سهرة على حسابهم .. ويحاولون فى ذلك اليوم أن يردوا لها جزءاً صغيراً من عطفها عليهم وعنايتها بهم ..

وفى ذلك اليوم وقف الطفل (بارى روكلاند) وعمره ١٠ سنوات أمام محل تجارى فى نيويورك .. لقد اشترى لأمه فى العام الماضى حقيبة يد .. وفى العام السابق خمسة جوارب نايلون .. وفى العام الأسبق صندوق شيكولاته ..

ولكنه فى هذا العام كان يرغب أن يقدم شيئاً لأمه طالما تمنته .. ولكن حالته المالية كانت تحول بينه وبين ما يطمح .. لقد سمع أن أميتها أن تشتري معطفاً من الفراء .. وقرر أن يقدم لها هذا المعطف ..

ودخل الطالب المتجر، وطلب أن يشتري المعطف الذى أعجب أمه، فقبل له أن ثمنه مائة جنيه! ..

فقال الطفل إن إيراده من بيع الصحف هو ثلاثون قرشاً فى الأسبوع .. فهل يقبل المحل أن يسلمه المعطف على أن يدفع هذا المبلغ كل أسبوع؟ ..

(*) على أمين - أفكار للبيع ..

وقال له صاحب المحل :

- كلا، خذ المعطف وادفع لنا ثلاثة شلنات فى الاسبوع .. واستبق باقى مكسبك لمصروفك الخاص .. ولكن هل أنت مستعد للاستمرار فى دفع هذا القسط إحدى عشرة سنة؟..

فقال الطفل :

- بل مائة سنة .. أنتم لا تعرفون ما فعلته أُمى من أجلى ..
وأخذ المعطف إلى بيته، وقدمه لأمه فى يوم الأمهات ..

* * *

(عيد الأم .. مقدس)

* وكتب «عباس محمود العقاد» فى جريدة «الأخبار» يقول :

- يوم الأم عيد من أعيادنا المقدسة عسى أن يدوم على مدى السنين ..
ونحن - الشرقيين - لا يعوزنا حب الأمومة، ولا نحتاج فيه إلى تعليم من الأمم الغربية؛ لأن شعائر «الأم الخالدة» عريقة فى ديانات الشرق من عهد بعيد، جد بعيد.
والدين يعلمنا أن «الجنة تحت أقدام الأمهات» ..
وشاعرنا الحكيم الزاهد فى الذرية يوصى قارئه أن يكرم أباه الشيخ، ثم يدركه
فيقول :

- «وفضل عليه فى كرامتها الأُمّ» ..

وأكبر شعرائنا - «ابن الرومى» و «المتنبى» و «الشرىف الرضى» - لا نحفظ لهم شعراً أبلى من قصائدهم فى ذكرى الأمهات ..

نحن لا نحتاج - إذن - إلى تعليم من الغرب فى حب الأمهات، وإنما نحتاج إلى تنظيم ..

وقد جاء هذا التنظيم فى أوانه تذكرة للأبناء وتذكرة قبل ذلك للأمهات .. أو تذكرة للمرأة التى كادت فى هذا الزمن تنسى أقدم واجباتها وحقوقها معاً، وهى واجبات الأمومة وحقوقها مجتمعات .

المرأة « الأم » هى بقية القديسين فى زمن بطلت فيه القداسة، وإنما هى زوجة لتكون أمّاً، وإنما هى محبة محبوبة لتكون أمّاً، وإنما هى ذات مكان فى المجتمع كله لتكون أمّاً، وإنما هى كل شىء بالأمومة، وليست بشىء على الإطلاق إذا نسيت هذه الأمومة ..

فلتذكرها فى ضميرها على مدى الأيام ..
ولتذكرها مع جميع الأمهات وجميع الأبناء يوماً فى كل عام ..

* * *

(عيد صنعة الدموع)

فى عام ١٩٦٢ قال على أمين :

كان ذلك منذ سبع سنوات .. فى الساعة العاشرة من صباح يوم ٥ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ ..

كنت جالساً فى مكتبى بدار أخبار اليوم، «أهرش» فى رأسى ..

كنت أبحث عن «فكرة» أكتبها ..

وفى هذا الصباح تبخرت كل الأفكار من رأسى .. طارت كلها فى الهواء ..

وحاولت أن أسترد أفكارى بفنجانين من القهوة وبدخان السجائر الذى ملأت به جو مكتبى، ولكنى فشلت فى العثور على فكرة واحدة أضعها على الورق ..

وبدأت أرتب الأوراق المبعثرة على مكتبى؛ لعل تنظيم الكتب يعيد ترتيب الأفكار المبعثرة فى رأسى ..

وكان الجو بارداً .. ومع ذلك فتحت النوافذ .. لعل الهواء البارد يحمل لى
« فكرة » ..

وفجأة فتحت سكرتيرتى الباب وقالت لى :

- سيدة تبكى تطلب مقابلتك ..

وتشاءمتُ ، فأنا لا أطيق دموع النساء .. إنها تحطم أعصابى ، وتشتت أفكارى ،
وتفقدنى النطق ..

ودخلت الزائرة مكتبى وهى ترتدى ملابس الحداد! ..

وزاد تشاؤمى ..

وجلست أمامى ، وغرقت فى البكاء ..

قال لى وجهها : إنها فى الخمسين من عمرها !! ..

وقالت لى أصابعها وهى تصافحنى : إنها امرأة عاملة .. فإن خشونة يدها الصغيرة
روت لى قصة جهاد امرأة فقيرة ..

وقالت لى ملابسها : إنها من أسرة متوسطة .. أو من أسرة كريمة غدر بها الزمن ،
وسرق منها كل شىء إلا الذوق السليم ..

وطلبتُ منها أن تتكلم .. فانسابت دموعها ..

ثم قالت لى :

- لقد فقدت ابنى اليوم ..

قلت لها :

- البقية فى حياتك يا سيدتى ..

قالت :

- إنه لم يمت، لقد فقدته، خرج من حياتي ..

قلت :

- وهل هذا هو سبب ملابس الحداد؟

قالت :

- إننى ألبس السواد منذ ٢٥ سنة من اليوم الذى مات فيه زوجى، ولكن السواد الذى لف قلبى أكثر من السواد الذى ألف به جسدى .. فقد ترك لى زوجى ابنى، فعشت له .. أما الآن فلا أجد مبرراً للحياة ..

سألتها :

- هل اختلفت مع ابنك؟

قالت :

- أبداً .. إننا لم نختلف فى يوم من الأيام، بل إنه بعد أن مزق قلبى هذا الصباح، حرص على أن يُقبَّل يدي، إنه ولد مؤدب .. ولكن ..

سألتها :

- وكيف مزق قلبك؟

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع ..

ثم روت لى قصتها مع ابنها .. كيف أعطته كل شيء .. أعطته شبابها ورفضت أن تتزوج بعد وفاة زوجها وهى فى سن العشرين، حتى لا تعرض ولدها لقسوة زوج الأم .. وباعت مصوغاتها، ثم أثاث بيتها، ثم حلل المطبخ، ثم ملابسها؛ لتعلمه ولتعدده للحياة .. واضطرت أن تشتغل خياطة لتصرف على ولدها .. وفى بعض الأحيان كانت تشتغل سراً خادمة، تغسل وتكوى الملابس فى الفترات التى يقل فيها إقبال الزبائن على تفصيل الفساتين الجديدة ..

وفى بعض الليالى كانت تنام بلا طعام .. ولكنها لم تكن تشعر أبداً بالجوع، فإن سعادة ابنها ونجاحه فى المدرسة كانت تملأ عينيها وتشعرها أنها شبت ..

* * *

وحصل ابنها على الدبلوم، وحصل على وظيفة ..

وفى أحد الأيام فاتحها فى رغبته فى الزواج، فشجعتة على اختيار بنت الحلال، واختار العروس وباركت اختياره .. وقال لها : إن العروس لا تريد أن تعيش معها، فأيدت رأيها، وقالت لابنها : إن هذه رغبة طبيعية ومقبولة ومعقولة من العروس؛ لأنها تريد أن تستقل ببيتها، وتريد أن تشعر أنها صاحبة البيت لا مجرد زوجة ابن صاحبة البيت ..

وأعدت لابنها كتبه، ورتبت ملابسه فى الحقائق .. ولم تنس الأشياء الصغيرة التى يعتز بها ويجب أن تكون حوله ..

وحانت ساعة خروج الابن من البيت ..

وحمل الابن حقائبه وخرج ..

ونسى الابن أن يقول لأمه الكلمة التى انتظرت ٢٥ سنة لتسمعها من شفتيه ..

نسى أن يقول لها :

- شكراً يا أمى ..

وقالت الأم لى :

- لماذا نسى أن يقول لى «شكراً» لا أتصور أنه ابن عاق .. إنه ولد مهاب

ومؤدب .. هل تظن أن صغر سنه هو سبب نسيانه ؟ ..

وأحسست أنها تريد منى أن أكذب عليها .. تريد منى أن أقول لها أن ابنها الذى

يبلغ من العمر ٢٥ سنة لا يزال طفلاً .. وأنه عندما يكبر سيقول لها : «شكراً» ..

وكذبت عليها ..

فقد كان الكذب هو المنديل الوحيد الذى استطعت أن أجفف به دموعها ! ..
وكانت دموع هذه الأم هى المداد الذى كتبت به «الفكرة» التى نشرتها فى يوم
٦ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ ..

فقد هزتنى دموعها وهزت قلمى ومشاعرى! ..

واكتشفت عقب خروجها من مكتبى أننى أيضاً نسيت أن أقول لأمى :
- شكراً يا أمى! ..

لقد قلت لأمى «شكراً» ألف مرة .. ولكن كان يجب أن أقولها مليون مرة ..
وأمسكت قلمى وكتبت قصة هذه الأم المنسية باختصار، ثم ختمت الفكرة
قائلاً:

«الواقع أننا ننسى أمهاتنا .. ننسى التضحيات التى تقدمها الأم لنا .. ولا نذكرها
إلا بعد أن يفرق الموت بيننا» ..

«فلماذا لا نتفق على يوم من أيام السنة، نطلق عليه لقب «يوم الأم»، ونجعله
عيداً قومياً فى بلادنا وبلاد الشرق .. وفى هذا اليوم يقدم الأبناء لأمهاتهم الهدايا
الصغيرة، ويرسلون للأمهات خطابات صغيرة يقولون فيها «مرسى» أو «شكراً» أو
«ربنا يخليكى»؟

لماذا لا نشجع الأطفال فى هذا اليوم، أن يعامل كل منهم أمه كملكة، فيمنعوها
من العمل، ويتولوا هم فى هذا اليوم كل أعمالها المنزلية بدلاً منها؟

ولكن أى يوم فى السنة نجعله «عيد الأم»؟

«اختاروا أنتم اليوم .. وأنا أجعله لكم عيداً للشرق، وعيداً للقلوب» ..

وتلقيت أُلوف الخطابات من القراء يؤيدون فكرة «عيد الأم»، واختلفت الآراء حول تحديد اليوم ..

وجاءتني السيدة «زينات الجداوى» تهنئني بالفكرة ..

ورفضت التهنئة، قلت لها : إن التهنئة الوحيدة التى أقبلها منها هى أن تتصل بالجمعيات النسائية وتعرض عليها الفكرة، وتطلب منها أن تؤيدها ..

وتحمست «زينات» ..

وفى اليوم التالى هبطت حماستها ..

فإن سيدات الجمعيات النسائية اختلفن على اختيار «يوم عيد الأم» .. وكان من نتيجة هذا الخلاف، أن اتفقن على دفن «الفكرة» ..

وهددت بنشر تفاصيل الخلاف بين السيدات على الناس؛ لتعرف الدنيا حجم العقول الصغيرة، التى تسيطر على جمعياتنا النسائية ..

ولم يؤثر تهديدى فى زعيمات الجمعيات النسائية .. لقد اتفقن على دفن الفكرة ..

وقررت أن أضع زعيمات الجمعيات النسائية أمام الأمر الواقع، فاخترت وحدى يوم ٢١ من مارس عيداً للأم ..

فهو أول أيام الربيع فى بلادنا .. وأول أيام موسم الحب .. وحب الأم هو أجمل ألوان الحب ..

وفى يوم ٩ من ديسمبر سنة ١٩٥٥ أمسكت قلمى وكتبت الفكرة التالية :

* * *

(فكرة)

* ما رأيكم فى يوم ٢١ من مارس ؟ ..

إنه اليوم الذى يبدأ فيه الربيع، وتتفتح فيه الزهور، وتتفتح فيه القلوب !!

ما رأيكم أن نجعل «عيد الأم» هو بداية الربيع فى بلادنا، وبلاد الشرق الأوسط؟ ونساهم كلنا فى جعل الأم فى هذا اليوم «ملكة بيتها»، فلا تغسل، ولا تطبخ، ولا تمسح، وإنما تصبح «ضييفة الشرف» ويتولى أولادها كل أعمالها المنزلية، فيطهون لها الطعام، ويقدمون لها الهدايا وباقات الزهور، ويضعون تحت عقب الباب فى حجرة نومها خطابات رقيقة يسجلون فيها نبضات القلب التى تاهت بين الشفاه طوال العام؟ ..

انه يوم الأم فى الدول الأوروبية والأمريكية هو الأحد الأول من شهر مايو من كل عام، وهو يتأرجح بين يوم أول مايو ويوم ٦ من مايو .. وأنا أكره هذه المرححة، وأرى أن نختار يوماً معيناً لا يتغير تاريخه على مر الأيام ..

ومع ذلك فالرأى لغالبية القراء، فأنا لا أريد أن أفرض يوماً معيناً .. ولكن يهمنى أن نتفق على يوم واحد ..

ولقد تلقيت مئات من الخطابات والتليفونات .. ومعظمها يتفق على أن يكون عيد الأم يوماً من أيام الربيع .. وأحدها يقترح أن نختار يوم ميلاد الأم التى شكت لى من أن ابنها نسيها بعد أن ضحت من أجله بشبابها وأثاث بيتها وملابسها .. وأحدها يقترح أن نختار اليوم الذى ولدت فيه أمنا حواء!!

وجاءنى خطاب واحد يعترض على فكرة الاحتفال بعيد الأم، إنه خطاب من يتيم فقد أمه .. إنه يقول : إن احتفال الأولاد بأمهاتهم سيزيد عذابه وعذاب اليتامى، ولكنى لا أوافق على هذا الرأى .. فإذا نحن احتفلنا بالأحياء فإننا لن ننسى الأموات.

إننى شخصياً سأذهب فى هذا اليوم إلى قبر أمى، وأضع عليه باقة من الورد،
فالذى يتذكرون أمهاتهم لا يتعذبون، وإنما يحلّقون فى السّحب مع الملائكة .. فما
رأيكم فى يوم ٢١ من مارس؟

اكتبوا إلى ..

واقنع الألوف برأى ..

وبقيت الجمعيات النسائية تخارب الفكرة! ..

وبدأت الصحف تهاجمنى وتهاجم الفكرة، وتقول : إنها فكرة أمريكانية لا تتفق
مع تقاليدنا ..

وقالت صحف أخرى : إننى أقوم بدعوة استعمارية أحاول فيها هز كيان الأسرة
فى بلادنا بالتفريق بين الأب والأم ..

ورحت أكتب فى كل صحف دار أخبار اليوم أدعو للاحتفال بعيد الأم فى يوم
٢١ من مارس من كل عام ..

وملأت صحف ومجلات دار أخبار اليوم بصور كاريكاتورية تدعو لفكرة عيد
الأم .. فالصورة تغنى فى كثير من الأحيان عن ألف مقال ..

ورأيت أننى فى حاجة إلى سند رسمى، فاتفقت مع السيدة زينب الجداوى أن
تذهب إلى مقابلة وزير المعارف - فى ذاك الوقت - السيد كمال الدين حسين
وتعرض عليه الفكرة .. فتجس لعيد الأم، وأيد فكرة الاحتفال به فى يوم ٢١ من
مارس من كل عام، وأصدر منشوراً لجميع مدارس الدولة يطلب منها الاحتفال بهذا
العيد كل عام ..

وصوبت كل مدافع «أخبار اليوم» لإنجاح فكرة الأم ..

كانت فكرة «عيد الأم» تصدم القارئ في كل صفحة وفي كل باب وفي كل ركن .. بل أدخلت «العيد» في السياسة فكلفت «رخا» و «صاروخان» رسم عدة صور كاريكاتورية سياسية تستغل فكرة عيد الأم في مشاكلنا السياسية والدولية ..

وانتقلت فكرة العيد إلى سوريا وإلى لبنان وإلى الأردن، وإلى المملكة السعودية وإلى شمال إفريقيا وإلى السودان .. وراحت كل البيوت والأكواخ تحتفل بعيد الأم ..

واستمرت المدافع تنطلق في شهرى يناير وفبراير ..

وفي مارس بدأت أعد القراء للعيد!..

كان إذا فتح جريدة الأخبار في أول مارس يقرأ أنه باق من الزمن ٢٠ يوماً!!.

وإذا فتحها في ٢ من مارس، قرأ أنه باق من الزمن ١٩ يوماً .. وهكذا ..

وزاد حماس الناس لعيد الأم!..

وفي الأسبوع السابق للعيد بدأت المحلات التجارية تلاحظ إقبالاً غير عادى ..

وتضاعف الزحام يوماً بعد يوم ..

واتصل بي أصحاب محلات صيدناوى وشيكوريل وعمر أفندى، وقالوا لى : إن محلاتهم لم تزرحاًماً كالذى شاهدته فى الأيام السابقة لعيد الأم!!..

وازدحمت كل المحلات التجارية، وسجلت أرقاماً فى المبيعات لم تسجلها فى الأعياد ..

وفي يوم ٢١ من مارس رحت ألتجول فى الشوارع .. فرأيت مئات الألوف من الأولاد والبنات يحملون الهدايا .. ورأيت رجالاً وسيدات يحملون الصناديق الملونة، فلقد اشترك الكبار مع الصغار فى هذا العيد .. وامتلأ كل بيت وكل كوخ فى بلادى بالضحكات ودموع الفرح!!..

وذهبت إلى الإمام الشافعي مع مصطفى أمين، ووضعنا باقة من الزهر على قبر أمي!!..

وكلفت أحد باعة الزهور إرسال باقة زهر إلى الأم التي نسي ابنها بعد ٢٥ سنة أن يقول لها :

- شكراً يا أمي ..

ووضعت على الباقة اسم الابن الضعيف الذاكرة ..

وفي صباح اليوم التالي وجدت السيدة المنسية تنتظرني في مكتبي ..

وقالت لي السيدة :

- شكراً على باقة الزهر الجميلة، لقد كانت منك أنت، لا مِنْ وَلَدِي ..

وأكدت لها أنها مخطئة وأنها من ابنها :

ولكن السيدة قالت لي ضاحكة :

- إنني واثقة أنها منك أنت .. فقد أرسل لي ابني باقة أخرى جميلة جداً..

ولاحظت أنها خلعت السواد، وسألتها عن السبب، فقالت لي :

- إنه أول أعيادي ..

وتقدمت مني، وأحاطتني بذراعيها، وقبلتني ..

ومازلت أحس بقبلات هذه السيدة على وجهي .. فإن قبلتها كانت أرفع وسام حصلت عليه في حياتي الصحفية(*) ..

* * *

(*) الهلال - مارس ١٩٦٢ ..

(الأم فى عيدها*)

منذ الأزل كانت قوام الأسرة وكان الأبناء ينسبون إليها .. لماذا ؟ ..

* فى المكانة : قيل أم القرى، وأم الكتاب. وفى الانتماء يقولون : الوطن أو اللغة الأم .. وليس الأب!!

الأم لم تأخذ مكانها فى التراث الشعرى العربى، ورد اعتبارها الشعراء المحدثون .. خاصة شعراء المهجر ..

قلما عرفت لغات أهل الأرض كلمة مشتركة بينها تضارع كلمة «الأم» ففى بنية هذه الكلمة حيث حرف الميم هو العمدة، يلاحظ أيضاً أن حرف الميم قاسم مشترك بين لغات الأم يدور على ألسنتها، ولا سيما السنة أطفالها على الدوام، مع اختلاف يسير فى سائر حروف الكلمة ..

ومن المرجح، وفقاً لما يجنح إليه علماء الألسنيات والأنثروبولوجيا، أن ما فطر عليه الطفل البشرى فى أى مكان من هذه الدنيا، من مناغاته أمه بصوت : ما، أو مام، أو مامى، أو ماما .. إلخ أو ما شابه ذلك، إنما هو أصل إطلاق تسمية (الأم) على ذلك الكائن الإنسانى عبر العصور وعلى اختلاف الأمكنة وتباين الأقوام ..

والأم فى اللغة تعنى فيما تعنيه : الأصل والأساس والنسخ والجذر والمنبع والمنبت والمنشأ .. وفى سالف العصور الموغلة فى القدم كانت الأم فى الجماعات البدائية هى قوام الأسرة وعمدتها .. وقد ظل البشر دهوراً طوالاً ينتسبون إلى أمهاتهم دون آبائهم، باعتبار هذا الولاء أصرح نسباً وأوضح انتماء .. وعلى ذلك تشيع فى كثير من اللغات المعاصرة عبارة (لغة الأم) ويراد بها اللغة الأصيلة .. فلم يقولوا لغة الأب .. لافتقار هذه العبارة إلى الدقة؛ إذ الأصالة الحقيقية إنما تسرى إلى الطفل من خلال

(*) العربى - د. عمر الدقاق ..

أمه؛ لأنه هو مولود من رحمها، وملتصق بها .. وملازم إياها فى ظهور طور تكونه ونموه .. فكأنما المرء فى طفولته يرضع اللغة من فم أمه مع رضاعة اللبن من ثديها سواء بسواء ..

ومن هنا أيضاً يتردد على الألسنة تعبير (الوطن الأم) أى الوطن الأول والأساس، وإن تعددت بعد ذلك الأوطان، ويقصد به وطن المولد والمنتب والمنشأ ..

* دلالات مجازية :

وعلى هذا الغرار توسع الناس فى استعمال لفظ الأم عن طريق المجاز، ويعنون به دوماً الأصل أو الجذر أو نحو ذلك، فالمرأة التى تتولى عملاً أساسياً فى مؤسسة ما، من دير أو مستشفى أو مشغل تعرف - ولا سيما فى بلاد الغرب - باسم الأم .. بل إن لفظ الأم يطلق على كل امرأة مسنة بوجه عام .. وهذا طبعاً من قبيل الاحترام والتقدير، لما تنطوى عليه كلمة أم من هالة محبة عميقة لدى كل إنسان ..

كذلك - وربما للسبب نفسه - يطلق فى بعض لغات الغريين اسم (الأم الكبيرة) على ما يسميه العرب مثلاً الجدة؛ إذ لا وجود لمرادف هذا اللفظ فى معاجمهم، كما لا تحتوى لغتهم لفظاً بعينه للحماة، بل يسمونها بالفرنسية مثلاً (الأم الجميلة) ..

وهذه التسمية تبدو لنا غريبة بالاستناد إلى معناها الحرفى .. وهى أيضاً قلما تطابق الواقع فى مدلولها، وذلك لانتفاء صفة الشباب والنضارة فى أدنى الأحوال، والكلمة عندهم بطبيعة الحال لا تمت إلى معناها بنسب .. ولعلها فقدت هذا المعنى اللغوى الدقيق على مرّ العصور .. وقد يكون فى هذا التعبير السماح ما يرضى نساء كثيرات ..

لأن تسمية الأمور بأسمائها الصريحة أو المباشرة قد تكون ذات وطأة على بعض النفوس، ومعلوم أن حموات كثيرات فى المجتمعات العربية يمتنعن من هذه

التسمية المباشرة، ويؤثر أن يدعون بكلمات أخرى بديلة مثل ماما أو الست الكبيرة أو امرأة العم.

ومن هذا القبيل عبارات جملة تنطوى على كلمة الأم، وتدور على الألسنة مثل المؤسسة الأم .. أى الكبرى تمييزاً لها عن سائر الفروع، والينبوع الأم أى الأغزر، كذلك يقال : الكتاب الأم أو النسخة الأم، وأيضاً الفكرة الأم بالنسبة إلى بحث أو موضوع .. واللوحة الأم أى الأصلية .. وتقول العامة : أم الزيت وأم الخمرة أى : أولهما والصفوة منهما، كما تقول أم الخل أى ما يتكون فى أعلى الزجاجاة من خلايا بكتيرية أو خمائر تطفو على سطح ذلك السائل.

* أم الكتاب .. أم المؤمنين :

أما فى الفكر العربى الإسلامى فقد ذاع تعبير «أم الكتاب» أى سورة «الفاتحة» التى لقبت بذلك لكونها تنصدر آيات الله البينات فى مستهل المصحف الشريف. كذلك عرفت مكة المكرمة فى لسان العرب وعقيدتهم وتاريخهم بأنها (أم القرى) أى سيدة المدائن ورائدة البلدان؛ لما انطوت عليه من قداسة وعراقة بفضل قيام الكعبة المشرفة فى وسطها منذ عصور سحيقة ..

كما غلب فى تراث الإسلام لقب (أم المؤمنين) على السيدة خديجة بنت خويلد زوج النبى عليه الصلاة والسلام، فهى فضلاً عن كونها أولى نسائه، فقد حدث فى عهدها الانعطاف العظيم فى حياة محمد صلى الله عليه وسلم حين اختاره الله لنشر الرسالة .. فإذا هى تشجعه وتسانده، وتغدو بذلك أول امرأة فى التاريخ تعتنق الإسلام، والمرأة الرائدة الأولى التى جعلها المسلمون بمثابة أم للمؤمنين ..

وشبيه بذلك ما رسخ فى عقيدة المسلمين من أن الخمرة أم الكبائر والردائل، أى أصلها ومصدرها وما كان من هذا القبيل ..

وفى هذا المجال المجازى لكلمة الأم مضى العرب يقولون مثلاً : «ضربه على أم رأسه»، أى على أخطر موضع فى جمجمته، أو أعلى جزء وأهمه فى رأسه .. ويقولون أيضاً «رأه بأم عينه»، أى شاهده عياناً، وعلى وجه اليقين ..

وقد أطلق الأولون على الأرض التى ينبثق من ترابها كل شىء اسم (الأم) أيضاً .. فقال الشاعر الجاهلى أمية بن أبى الصلت :

الأرض معقلنا وكانت أمنا

فيها مقابرنا وفيها نولد

كما قال الشاعر الآخر :

أمنا الأرض من ترابها خلقنا

واليها بعد الممات نعود

ولا يبعد أن ينطوى هذا التعبير فى الأصل على دلالة ميثولوجية سالفة ..

على أن لكلمة (الأم) أخيراً فى لغة العرب أهمية خاصة من حيث الدلالة تسمها بالتميز .. فكلمة (الأمة)، من حيث بنيتها، وثيقة النسب بكلمة الأم .. وهذه ظاهرة لفظية ربما تفردت بها العربية من حيث هذا الارتباط الدلالى دون سائر اللغات .. إذ الفرق بين الأم والأمة لا يتعدى صفة الشمول، فالأم والأمة كلتاها تدل على الأصل أو الجذر، ومنهما يكون التحدر، وإليهما يكون الانتماء .. كما أن الاختلاف اليسير بين الكلمتين فى المبنى هو الذى اقتضى - على حسب مفهوم فقهاء اللغة - هذا الاختلاف النسبى فى المعنى ..

* فى العقائد السالفة .. والإسلام :

إذا كانت النفس الإنسانية منطوية بطبيعتها على كتلة من العواطف وجملة من المشاعر، فما من ريب فى أن عاطفة الأمومة : أنبلها .. ومشاعر الأم تجاه فلذة كبدها : أصفها ..

ومنذ الأزل عمر الكون واتصل النوع بفضل الأم .. حتى إن ديانات غابرة، وعقائد سالفة ارتكزت إلى حد بعيد على تقديس الأمومة وإجلالها، واعتبار الأم أصل الخصوبة والإنجاب، ومنبع الخير والبركة .. ويعتقد علماء الاجتماع وفقهاء اللغات أن تأنيث اسم الشمس في اللغات السامية دليل على هذا الرأي؛ لأن الشمس في زعمهم ولادة للنور، دفاقة للحرارة، جلابة للخصب، وثمة تصاوير وكتابات جمة تتجلى من خلال الآثار الشرقية الغابرة والعاديات الموغلة في القدم، وتبرز عاطفة الأمومة وتجسد دور الأم في الحياة ..

ثم أحلت الأديان السماوية الأم بوجه عام منزلة سامية، وأولتها احتراماً مستحقاً؛ فالسيدة مريم العذراء أم السيد المسيح عليه السلام تتبوأ مقاماً عالياً في عقيدة المسلمين وفي عقيدة المسيحيين على حد سواء .. وقد خصها القرآن الكريم كما خص السيد المسيح بكثير من آيات الاحترام والتبجيل ..

فضلاً عن أن سورة خاصة في المصحف الشريف سميت بـ (سورة مريم) .. ومن جهة أخرى غدت السيدة العذراء على مر العصور هي الملهمة الأولى لقرائح المبدعين في العالم؛ إذ حفزتهم على خلق روائع من الفن الرفيع على صعيد الأدب والموسيقا والنحت والتصوير ..

وفي الإسلام - ولا سيما من جانبه الإنساني والخلقي والتربوي - اهتمام خاص بشخص الأم وموضوع الأمومة، سواء أكان ذلك في تناولها مستقلة أو مقترنة مع الأب، وكثيراً ما حض القرآن الكريم والحديث الشريف على بر الوالدين وطاعة الأبوين والإيضاء برعايتهما والإشادة بفضلهما ..

وفي مقابل ذلك استهجن الإسلام عقوق الوالدين، والإساءة إليهما .. وكان هذا من أسس التربية الإسلامية القومية التي تنطلق من قوله تعالى في القرآن الكريم :

﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه، وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولاً

كريمًا. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً» ..

(سورة الإسراء - الآيتان ٢٣ ، ٢٤)

فأول ما يلفت الانتباه في هذه الآيات أنها جعلت عبادة الله والإحسان إلى الوالدين على صعيد واحد، وفي هذا منتهى التقدير .. والآيات في مجملها معان سامية ترقى إلى ذروة مراتب التلطف والتعذيب .. والوفاء والإنسانية ..

كما تسمو إلى قمة منازل المحبة والاحترام وعرفان الجميل .. وهى فى الوقت نفسه تتوج أشد النظريات والآراء التربوية أصالة، وأكثرها نبلاً ..

وتنطوى السيرة النبوية على جملة من الأحاديث الشريفة فى هذا المجال أيضاً .. فقد قال النبى صلى الله عليه وسلم مرة لصحافته :

- «ألا أدلكم على أكبر الكبائر؟» قالوا : بلى يا رسول الله، قال : «الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» ..

وهذا الحديث الشريف صورة مشابهة لما حض عليه تعالى فى كرام آياته التى سلفت .. فكما جعل الله عبادة الخالق ومحبة الوالدين فى منزلة واحدة، جعل رسوله الكريم الإشراك بالله، وعقوق الوالدين أيضاً فى درجة واحدة ..

وفى خبر آخر : أن رجلاً مضى إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : جئت أبأبعك على الهجرة وتركت أبوين يتييمان . فأجابه عليه الصلاة والسلام :

- «ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما» ..

وقد خص القرآن الكريم المرأة بواحدة من أطول سوره، وهى سورة (النساء) .. وكان النبى صلى الله عليه وسلم يكن للمرأة - هذا المخلوق الإنسانى الوديع - كل عطف، ويحض فى أحاديث جمّة على رعايتها والترفق بها، فضلاً عما منحه إياها من حقوق، وأعادته إليها بعد الجاهلية من اعتبار ..

وروى أن رجلاً جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

- يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحبتي ؟ فأجابه :

- أملك ..

قال : ثم من ؟ قال : أملك ، قال ثم من ؟ فقال :
أبوك ..

على أنه ما من عبارة دارت على الألسنة وسارت فى الآفاق أكثر من القولة الذائعة
للنبي العربى :

- «الجنة تحت أقدام الأمهات» ..

حتى لقد ردها كل ابن أنثى فى دنيا العروبة والإسلام . وقريب من هذا الحديث
الذائع ما أثار عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً حين أتاه رجل وقال :

- يا رسول الله ، إننى أردت الغزو .

فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :

- هل لك من أم ؟

قال : نعم .

قال : فالزمها ، فإن الجنة تحت قدميها ..

ويبدو جلياً أن هذا النهج القويم قد ترسخت جذوره بعد ذلك فى النفوس ،
وتأصلت عناصره فى السلوك .. فنحن نقع على قصة أخرى مشابهة أوردتها صاحب
«الأمالى» إذ نقل ما وقع بين أبى الأسود الدؤلى وامراته من نزاع حول أحقية كل
منهما بولدهما .. فاحتكما إلى الوالى زياد بن أبيه حتى يقضى بينهما .. فأمر زياد
كلا منهما أن يمسك بطرف من طرفى الولد ويشده إليه بقوة ، فمن صار إليه الولد
بات له .. وهنا صاحبت الأم مذعورة دعه له فإنه ولده .. حيثذ قضى الوالى بالولد
للأم ..

* عظمة الأم :

فإذا كان الإيثار قوام عاطفة كل أم تجاه ولدها فى سبيل أن تحتفظ به، وتصور حياته فلا تطيق أن تتمزق أوصاله أو يتحرق جسده - فإن التضحية بحياة الولد الغالى فى مقابل ذلك ليموت ميتة أشرف من الحياة، إنما هى فى حقيقتها أعلى مراتب التجلد وأسمى مراقى الحلم، كما أنها تعبير عن ذروة الانتصار على النفس الجائشة، وكبح جماح العاطفة الهائجة ..

أجل فى مقابل هاتين الصورتين الإنسانييتين للأم الرعوم، أم علقمة وأم صخر اللتين تمثلان الأصالة المتألقة للأم، الأم الجازعة الحانية، الأم المشفقة المتسامحة .. تتجلى لنا من وجهة أخرى خلال تراثنا الحافل صورتان رائعتان لجانب آخر ظليل من شخصية الأم، الأم العظيمة الصابرة .. الأم الأبية الشجاعة ..

إنه فى فجر الإسلام، وفى طور اندفاع رسالته خارج الجزيرة العربية غلبت روح الجهاد على النفوس حتى استرخصت الأرواح فى سبيل إعلاء كلمة الله ..

وهكذا مضى أولاد الخنساء الأربعة مع كتائب المجاهدين إلى بلاد فارس تحت راية الإسلام .. وحين عاد الجيش إلى الوطن بعد معركة القادسية المظفرة كان قد خلف فى تلك البقعة التاريخية الدامية جمعاً مباركاً من الشهداء الأبرار، وفى جملتهم أولئك الشبان الأربعة الذين استشهدوا هناك جميعاً ..

كانت الخنساء، بقامتها النحيلة .. فى عداد الجموع التى خرجت لاستقبال شبابها البواسل .. وما إن أقبل عليها بعض المجاهدين وهو يتهيئون لقاءها، حتى وجموا وانعدت ألسنتهم لهول الخبر، وفداحة الخطب ..

ولكنها كسرت طوق الصمت وجمود الموقف لتسأل بلهفة عن نتيجة الغزو .. عندئذ أخبروها نبأ الفتح المبين، ثم ما وقع من قضاء الله .. فتنفست الصعداء، وعاد البشر إلى أسارى وجهها المتغضن .. ثم راحت تدعو ربها، وتناجى أرواح أولادها الطاهرة، بصوت شجى رخيخ ملؤه الرضا والإيمان :

- «الحمد لله الذى شرفنى باستشهادهم، وأرجو الله أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته» ..

يا له من نمط فذ من الأمهات يقارب فى تألقه وعظمته روعة الأسطورة، برغم أنه نابع من أعماق الواقع، الواقع الحى البسيط، وهو فى الوقت نفسه نموذج متميز قل أن يكون له نظير فى تاريخ الشعوب!!

وعلى هذا الغرار نحن واجدون فى غمار التراث الإسلامى الحافل، ومن خلال مطولات كتب الأدب العربى القديم أخباراً جمّة أخرى عن مواقف وأقوال تتصل بموضوع الأمومة، وتنبنى عن أخلص المشاعر، وأنبّل العواطف .. ومن هذا القبيل ما أورده المبرد فى كتابه (الكامل) حين قال : «حدثنى المازنى قال :

- رأيت رجلاً يطوف بالبيت (الكعبة) وأمه على عنقه وهو يقول :

أحمل أُمى وهى الحَمالة

ترضعنى الدرة والعلالة

أى أنه يحمل أمه الآن وفاء لبعض الدين؛ إذ طالما حملته فى بطنها، ثم حضنته فى حجرها، وراحت ترضعه درة بعد درة من لبنها ..

*** هل أنصف الشعراء الأم ؟ :**

والآن، لا بد لنا من الاعتراف - أن الأدب العربى الذى يولى موضوع الأم اهتمامه قل أن نجد له حيزاً كبيراً فى تراثنا الحافل .. وهذه ظاهرة غريبة تستوقف النظر، لما عرف به الشعر العربى من نزعة غنائية بارزة .. أجل لماذا لم يلتفت الأدب العربى عبر عصوره المديدة، ومن خلال أعلامه وفحولته التفاتاً حقيقياً إلى الأم، وموضوع الأمومة ؟ ..

والحقيقة أن هذا أمر يصعب تفسيره ويعسر تبريره، ولا سيما أن التعاليم الإسلامية فى جملتها - وعلى رأسها آيات الله البينات والأحاديث النبوية الشريفة -

قد ضربت أروع الأمثال للناس فى هذا الصدد .. وكانت فى ذلك رائدة للأدباء والشعراء ..

يضاف إلى ذلك أن الإسلام أورث المجتمع العربى منذ فجر تكوينه نظاماً أسرياً وطيداً متلاحماً، كما حض على بر الوالدين .. ورفع من شأن المرأة ومنحها حقوقاً جمّة، فضلاً عن أنه أنجب عظيمات الأمهات!!

ومع ذلك فإن المرأة، سواء كانت أمّاً أم أختاً أم زوجة، لم تكن بالإجمال مصدر وحي أو إلهام للشاعر العربى، وأغلب الظن فى رأينا أن ذلك المجتمع العربى ظل أمدأ من الزمان - برغم إسلامه وتحضره - واقعاً تحت تأثير المفاهيم الجاهلية السائدة والتقاليد القبلية السالفة، وأكثرها لم يكن يولى المرأة عامة ذلك الاهتمام المنشود ..

وإذا ما تصفحنا دواوين الشعر العربى، وهى بطبيعة الحال تشكل شطراً كبيراً من جملة نتاجنا الأدبى، وتكاد تعدل جبلاً فى حجمها - هالنا ألا نعثر خلال هذه الغزارة الطاغية إلا على صفحات معدودات لا تشفى الغليل تجاه ذلك الركام البالغ من أشعار العرب فى سائر الموضوعات ..

وهكذا .. كادت الأم تغيب عن الشعر العربى .. على غزاته، وغنى موضوعاته!! ولولا فئة قليلة من الشعراء الذين رادوا هذا المجال، وأبدعوا فيه، من أمثال أبى فراس، وأبى العلاء، والشريف الرضى، وابن سناء الملك .. لهممنا أن نصمم غالبية الشعراء العرب بالعقوق وتبلد الشعور، حتى كأنهم لم ينبثقوا فى رحم، ولم يغتدوا من ثدى، ولم يرتعوا فى حضن ..

والحق أن صورة المرأة فى الشعر العربى أمّا وزوجاً وبنّتاً .. لم تتألق على الوجه المنشود إلا فى هذه العصور الحديثة، وما ذلك إلا بفضل انكسار طوق التقاليد الرثة والمفاهيم البالية التى كانت تحول بين الشاعر، وبين مناجاة من يحب ..

لقد بكى الشاعر أحمد شوقى أمه بلوعة .. ومثله فعل معروف الرصافى، وشبلى الملاط، وخليل مطران .. كما برع فى تناول موضوع الأمومة إبراهيم المنذر، وإلياس

فياض، وصالح الشرنوبى، ومحمود أبو الوفا، وأبو القاسم الشايبى، وفدوى طوقان، ثم بدر شاكر السياب، وسليمان العيسى، وأسعد على، ومحمود درويش ..

حتى بتنا نجد بين أيدينا للمرة الأولى فى تاريخ أدبنا العربى دواوين بعينها خص بها الشعراء الأوفياء أمهاتهم .. من ذلك مطولة «ملحمة الأمومة» للشاعر محمد العدناني، وديوان (أمى) للشاعر : عمر بهاء الأميرى ..

كما نجد فى الوقت نفسه وعلى صعيد مشابه دواوين شعرية بعينها أفردتها بعض الشعراء المفجوعين لزوجاتهم أو بناتهم .. من مثل عبد الرحمن صدقى، وعزيز أباطة، وعبد المعين ملوحى .. مما لم يكن أيضاً مثله معهوداً من قبل .. وكل هؤلاء فاضت قرائحهم بأعذب الشعر وأرقه ..

على أن العطاء الصادق الدافق فى موضوع الأم والأمومة إنما تم فى هذا العصر بفضل أدباء المهجر، من أمثال جبران خليل جبران، وميخائيل نعيمة، وإيليا أبو ماضى، وأمين مشرق، وشكر الله الجر، وشفيق معلوف، وإلياس قنصل، وإلياس فرحات، والشاعر القروى .. الذين أغنوا موضوع الأمومة، ورفعوا من شأنه فى صرح أدبنا العربى ..

لقد كان الحنين إلى الأم، الأم الصابرة التى خلفها ذلك المغترب التاعس وراءه، وطوح بنفسه فى أقاصى الأرض، أرهف صفحة فى سجل الشعر المهجرى الطريف .. أجل استطاعت العنادل^(١) المهاجرة وهى فى تلك الربوع الأعجمية النسائية أن تسد أخيراً الثغرة وتصوغ فى موضوع الأمومة درراً يتألق بها جبين أدبنا العربى مدى الدهر. وبذلك فقط تم شد وتر جديد إلى قيثاره الشعر العربى، باتت تنبعث منه أشجى الأنغام، وأعذب الألحان ..

* * *

(١) العندل : الهزار ..

(الأم .. وحكايتها مع الزمن^(*))

(الأم قلب الأسرة .. ومظلتها وحارس بناتها وسعادتها .. الأم هي الأسرة كلها)

(إيمرسون) -

* * *

الأم : أعظم .. الأم : أقوى .. الأم : أجمل وأروع اسم تحمله امرأة ..
فليس كل النساء أمهات .. ولكن الأمهات نساء .. وأحلى وأجمل قصص
الحياة، هي قصة الأم وحكايتها مع الزمن ..

والذى يعيدنا إلى الحديث عن الأم ودورها فى بيتها ومملكتها ومجتمعها .. هو
هذا اليوم القريب من الشهر الذى انقضى (٢١ من مارس) عندما احتفلنا بعيد
الأسرة .. وعيد الأم .. ووقف الأبناء .. كل الأبناء: الأطفال، والـجـبار - يؤكدون
من جديد هذا الحب وهذا الوفاء الذى امتلأت به قلوبهم نحو هؤلاء الذين شاركوا
فى أعظم وأسمى وأنبى رسالة من الوجود : «رسالة الحق» .. ورعاية الثمرة الصغيرة
حتى تكبر ويقوى عودها .. ثم تعود القصة لتبدأ معها من جديد ..

قالت العروس فى أول رسالة لأُمها بعد أن خرجت من بيت والديها مع الرجل
الذى سيبنى معها حياتها الجديدة ومستقبلها :

- «.. ومشيت يا أمى فى الطريق الذى فرشته لى بالزهور .. صوتك الحبيب
مازال يهمس فى أذنى .. نصائحك ترسم لى موضع خطواتى على الأرض ..
حك الكبير الذى غمرتنى به طفلة وصبية وامرأة صنع منى أجمل إنسانة فى

(*) العربى - أبريل ١٩٧٨ ..

الدنيا .. ألم أكن أنا وحدى الذى اختارنى هذا الرجل الذى يسير معى فى هذه اللحظة دون سائر النساء؛ لأشاركه فى حياته» ..

وتمضى الزوجة الشابة فى مسيرتها على الطريق .. وتمضى بضع سنين يحمل فيها البريد عشرات الرسائل من الابنة وأمها .. رسائل تمتلئ بصور الحياة الجديدة التى تعيشها الزوجة الشابة فى عشنا مع زوجها .. وتمتلئ من الناحية الأخرى بهذا الحديث الحلو الذى طالما تأقت لسماعه .. ولكنه يبدو اليوم جديداً ..

إنه حديث امرأة تتذكر .. ما أجملها من ذكريات وهى ترى صورتها تتكرر فى أعز إنسانة إلى قلبها!! ومع الذكريات تجارب سنوات طويلة تنقلها بكل دقائقها لهذه الصغيرة التى تدعو لها بالسعادة مع كل نهار جديد ..

(الحكاية فى بدايتها)

يصف «نورمان فنست بيل» الكاتب الأمريكى الذى ملأ المكتبة بمؤلفاته عن الزواج وحياة الأسرة والأبناء على مدى ثلاثين عاماً عاشها فى محاولات لا تهدأ لسبر أغوار النفس البشرية وأحاسيسها وانفعالاتها ..

يصف «نورمان» هذا الطريق الذى تعده الأم لابنتها قبل الزواج ومن بعده .. وفى كل مراحل حياتها المقبلة مع زوجها يقول :

- «عند الزواج .. تبدأ الحكاية كما لو كانت مسألة شخصية بين رجل وامرأة تحابا وتواعدا على الارتباط أمام الله .. ولكنها - أى هذه المسألة - لا تبقى شخصية لوقت طويل .. فسرعان ما يدخل فيها شركاء بدعوة من أصحاب هذه الشركة التى بدأت بمؤسسيها التقليديين .. ما أشبه رحلة الحياة بين الزوجين بتلك النزهة التى يخرج فيها الرجل مع امرأته إلى الطريق الهادئ الصغير بين أحضان الريف وتحت الأشجار التى اكتست بخضرة الربيع .. وقد تعانقت يداهما فى صمت لا تتخلله سوى زقزقة العصافير!!

(إلى زحام الحياة)

ويمضى الاثنان فى مسيرتهما .. ولكنهما لا يستمتعان طويلاً بهذه الخلوة؛ إذ سرعان ما يجدان الطريق الضيق الصغير الذى لفه الهدوء .. قد قادهما فى النهاية إلى الشارع الواسع الفسيح فى قلب المدينة، حيث تمتلى الحياة بالصخب والضجيج ..

ويزداد الزوجان التصاقاً واقترباً .. ولكن لا بدافع الحب الذى ربط بين قلوبهما فحسب .. بل لأنهما يشعران فى هذه اللحظة أنهما أحوج ما يكونان إلى بعضهما البعض .. إن كلاهما يحس بحاجة للآخر وحمايته له ..

الطريق الهادئ فى القرية هو البيت الصغير الذى يجمعهما بعد الزواج .. والمدينة بصخبها وضجيجها هى نفس البيت، ولكن بعد أن وصل إليه الضيوف الصغار .. ثمرة هذا الرباط .. حياتهما الجديدة أصبحت مليئة بالحب والتضحيات والمسئوليات ..

لم يعد البيت الصغير لها وله، فقط .. لقد أصبح بيت الأسرة بيت الصغار .. كل شئ فيه لهم ومن أجلهم .. وفى سبيل إسعادهم تهون كل الصعاب ..

(الحب عند الأم)

* هكذا البداية ..

ولكن كيف تسير الحياة بعد مجيئهم ؟ ..

ونعود إلى الأم؛ لتعبر لها عما نَحْمَلُهُ فى صدورنا من حب ووفاء وعرفان لهذه الإنسانية التى عرفت هى «الحب» فى أروع وأجمل معانيه مع أول صبيحة لطفلها الأول .. إنه نفس الحب الذى كانت تراه هى فى عيني أمها، ولكنها لم تعرف سره وقوته إلا بعد أن أصبحت هى أمًا ..

يصل الطفل .. ذكراً كان أم أنثى .. فيلتصق بالأم .. يفزع إذا ابتعدت عنه، ولا يهدأ إلا عندما يحس بأنفاسها قريبة منه تداعبه وتدغدغه، فلا يلبث أن يستسلم لنوم هانئ سعيد ..

فالأم هي الدفء، وهي الغذاء، وهو يعرف هذا بالغريزة منذ الأسابيع الأولى لوصوله إلى هذا العالم الواسع من حوله .. إن الأب في الصورة أيضاً، ولكن الطفل لا يعتمد عليه .. إنه زائر يظهر فجأة ثم يختفى بنفس السرعة التي ظهر بها ..

ويكبر الطفل .. فإذا كان ولدًا، وجد نفسه يتجه لأبيه إذا رأى فيه الصديق الذي يهتم به ويشاركه في ألعابه وهواياته، وخاصة إذا لم يكن له إخوة ذكور .. ولو أن الأم تبقى بالرغم من ذلك الملجأ الذي يهرع إليه عندما يشعر بالجوع أو التعب ..

وهذا وجه الخلاف الأساسي بين الولد والبنت، فهي مع أمها، لا تكاد تباعد عنها حتى تسرع بالعودة إليها .. فهي التي تصفف لها شعرها، وهي التي تختار لها ملابسها .. وهي رفيقتها في رحلاتها داخل البيت وخارجه ..

ولذلك تبكي الطفلة عندما تذهب إلى المدرسة؛ لأنها تعودت ألا تشعر بالاطمئنان إلا عندما تكون أمها بجوارها .. وقد يحتاج الأمر إلى أسابيع وربما شهور قبل أن تعود البنت على هذه الصحبة الجديدة مع زميلاتها وتطمئن إليهن .. ولكنها تبقى بالرغم من ذلك متعلقة بأمها .. سرها كله عندها ومعها .. فهي صديقتها وأنيسة وحدتها .. وهي رفيقتها على طريق الحياة .. حتى بعد أن تتزوج وتصبح أمًا مثلها ..

(الأم .. والابنة)

* تقول الدكتورة «اليزابيث ريموند» أستاذة علم النفس الإنجليزية :

- «لا شيء .. ولا أحد يمكن أن يجعل البنت تنسى أمها .. حتى لو كانت أسعد زوجة في الدنيا .. وكما لا تستطيع أن تحتفظ طويلاً بالزهرة التي تقتلعها من الأرض التي نبتت في جوفها وارتوت من مياهها .. كذلك لا تستطيع أن تباعد الابنة عن أمها في سن معينة دون أن ينتابها هذا الشعور بأن شيئاً ما .. شيئاً كبيراً في حياتها قد غاب عنها ..

وكما تذبل الزهرة فى الإناء الذى ملأناه بالماء وحده لنعوضها عن الأرض ..
كذلك قد يحدث نفس الشئ للابنة التى تفترق عن أمها، وتنقطع كل الخيوط
التي كانت تربطها بها ..

وحتى فى المجتمعات التى لا تكون فيها الرابطة بين الآباء والأبناء بنفس القوة
التي تعودناها عندنا فى مجتمعنا الشرقى .. حتى فى هذه المجتمعات نرى الفتاة تعود
إلى أمها، ويشدها الحنين إليها إذا تعبت أو أحست بأن الدنيا قد أدارت لها ظهرها
لأى سبب من الأسباب ..

* تروى الدكتورة «اليزابيث» قصة الفتاة التى تركت بيت أبويها، وحزمت
حقائبها وسافرت إلى بلد بعيد لتكمل تعليمها الجامعى .. وهو شئ عادى يحدث
كل يوم عندهم، سواء كان طالب العلم المغترب ولداً أم بنتاً .. ذلك أن الروابط بين
أفراد الأسرة تضعف عندما يبلغ الشاب أو الفتاة سن الثامنة عشرة أو ما بعدها ..

عندئذ يكون الاعتماد على النفس .. والاستقلال بالحياة هما الأساس فى هذه
التجربة التى تبدأ مع الالتحاق بالجامعة ..

وبقيت الرسائل بين الابنة وأمها .. هى وسيلة الاتصال الوحيدة على مدى أربع
سنوات كاملة لم تفكر خلالها الفتاة فى العودة لزيارة أبويها، ولو مرة واحدة حتى فى
عطلة الصيف الطويلة ..

(وتمضى الحياة)

* إلى أن علمت الأم بطريق الصدفة أن ابنتها قد تزوجت .. وأنها تضطر إلى
العمل خلال أشهر الصيف فى الإجازة الدراسية؛ لتوفر لزوجها مصاريف الجامعة ..
فقد كانت هى مازالت تتلقى مبلغاً من والديها فى أول كل شهر يعاونها على
مواجهة أعباء الحياة، ودفع نفقات تعليمها الجامعى ..

وفجأة توقف وصول المبلغ الذى تعودت الفتاة أن تتسلمه شهرياً .. لقد مات الأب .. ولكن الأم أشفقت على ابنتها فلم تشأ أن تبلغها .. وخاصة أن الابنة كانت تتوقع حادثاً سعيداً .. فاستمرت تكتب لها، ولكن رسائلها كانت دائماً خالية من الشيك الذى كانت ترفقه بها ..

وأصبحت الابنة بدورها عاجزة عن الاستمرار فى عملها لتوفير نفقات دراسة زوجها .. فقد نصحتها الطبيب بالراحة، وكانت بالكاد قادرة على مواصلة دراستها .. فأرسلت إلى أمها تسألها فى حياء :

- «هل أطمع فى استمرار مساعدتكما لى ؟» ..

واقترضت الأم مبلغاً من المال سارعت بإرساله إلى ابنتها .. ثم خرجت من بيتها لأول مرة .. تبحث عن عمل .. لامن أجلها .. فقد كان المعاش الذى يصرفونه لها بعد وفاة زوجها يكفيها .. ولكن من أجل الابنة التى أحست اليوم بحاجتها إلى المال، أكثر من أى وقت مضى .. وحصلت على وظيفة فى مصنع لحياكة الملابس .. وعادت رسالتها تحمل الأمل مرة أخرى للابنة التى أقعدتها الأمومة المرتقبة عن العمل ..

(الحديث السعيد)

ومضت الأم تعمل .. حتى تلقت أخيراً الخبر الذى انتظرت طويلاً : «لقد رزقت اليوم بمولودة حلوة يا أمى .. كم تمنيت فى هذه اللحظة أن تكونى قريبة منى .. أراك قريباً» ..

ومضت الأم تعمل .. ومضت رسائلها تحمل الأمل للأم الصغيرة ومولودها .. إلى أن تخرج الزوج فى الجامعة .. وبعثت الفتاة برسالة طويلة إلى أمها :

* - «لم نعد فى حاجة إلى المبلغ الذى ترسلانه إلى، فقد التحق زوجى بعمل يدر علينا دخلاً يكفيننا ويزيد» ..

«وفى تلك الليلة ذهبت الأم إلى فراشها وأغمضت عينيها لتستريح، ولكنها لم تنم .. لقد داهمها المرض هكذا فجأة وبلا مقدمات .. أليس غريباً أن تشعر بكل هذا التعب يهد جسدها هدأً فى اللحظة التى وجدت نفسها فيها تقف فوق قمة العالم .. كم كانت سعادتها كبيرة هذا الصباح وهى تقرأ البرقية التى تلقتها من ابنتها تزف لها فيها النبأ السعيد .. وما هى الآن لم تعد تقوى على الوقوف على قدميها .. ماذا حدث ؟ ما الذى ألم بها ؟ ..

ونقلتها جارتها الطبيبة إلى المستشفى .. وقال الأطباء : إنها مصابة بداء الصدر .. وإنها فى حاجة إلى عناية خاصة وغذاء خاص ولفترة طويلة .. من أين لها هذا كله ؟ ..

(رحلة المرض)

ولم تشأ الأم أن تنقل لابنتها هذا الخبر الحزين وهى تحتفل اليوم بأجمل وأحلى حدث فى حياتها .. فأمسكت بالقلم وراحت تكتب بأصابع ضعيفة مرتجفة :

* - «سأسافر مع والدك فى رحلة طويلة .. قبلات كثيرة لحفيدتنا الصغيرة .. والى أن نلقاكم» ..

وباعت الأم كل ما تملك؛ لتتمكن من سداد نفقات علاجها فى المستشفى، فلما نفذ مالها .. تحاملت على نفسها وعادت إلى بيتها الصغير تقضى فيه ما تبقى لها من عمر ..

وعز على الجارة الطبيبة أن ترى صديقتها تموت مع وحدتها ومرضها .. فأسرعت تكتب إلى الابنة بما كان من أمر أمها المسكينة ..

(دمعة وفاء)

وجاءت الأسرة الجديدة .. الابنة وزوجها وطفلتها .. وعادت الحياة إلى الأم .. إنها لن تشعر بالوحدة بعد الآن .. كانت فرحتها بلقاء ابنتها وحفيدتها أقوى من كل شيء .. حتى المرض الذي كان يأكل صدرها .. وحملوها إلى المستشفى الذي تركته من جديد .. وسافر الزوج عائداً إلى عمله .. وخرجت الابنة تعمل وتكسب .. وأمام الفراش الذي ترقد عليه الأم بين أيدي الأطباء كن يلتقن كل ليلة .. الأم والابنة والحفيدة ..

ومع اللقاء كانت الذكريات الحلوة للأيام السعيدة التي قضتها الأم مع ابنتها منذ سنوات بعيدة مضت ... ثم وجدت نفسها تعيش فيها من جديد وهي ترى صورة حياتها مع ابنتها تعود مرة أخرى بين الابنة وصغيرتها .. ومع الذكريات، عادت إلى الأم صحتها، وقامت من فراشها ..

ودمعت عينا الابنة وهي تحس لأول مرة بأنها قد دفعت جانباً يسيراً من هذا الدين الذي يطوق عنقها، وأى تضحية في الدنيا تلك التي تستطيع أن تفي بالدين كله .. أن تعوض الأم ما بذلته، وتبذله من قلبها وروحها ودمها من أجل أبنائها؟!

